منزلة تحليل الخطاب فى فلسفة اللغة

د. الزواوى بغورة (*)

مقدمة :

فلسفة اللغة مبحث فلسفى جديد يهتم باللغة من منظور فلسفى ويعتمد على مناهج لغوية فلسفية أساسية كالتحليل المنطقى والألسنى والتأويلى. يعنى هذا أن مفهوم فلسفة اللغة يتكون من مختلف التطورات التى عرفها الفكر الفلسفى المعاصر والمتمثل بشكل خاص فى التطورات الحاصلة فى مجال المنطق الرمزى والتأويل أو فلسفة التأويل والألسنية أو علم اللغة الحديث. فما هى منزلة تحليل الخطاب فى فلسفة اللغة ؟ وماذا يقصد بالخطاب والتحليل الخطابى؟ وما هى علاقاته بالاتجاهات الكبرى فى فلسفة اللغة؟(١).

يثير مفهوم الخطاب فى الألسنية أو علم اللغة الحديث، الكثير من اللبس فهو يحتل مكانة خارج الثنائيات المعروفة فى الألسنية مثل، اللغة والكلام، الدال والمدلول، التزامن والتعاقب، النظام والعملية، الكفاءة والقدرة، البنية السطحية والبنية العميقة. . . إلـخ، والالسنيونه الأوائل أمثـال دى سوسير ١٨٥٧-١٩١٣ "F. De Saussure" وهلمسلف ١٨٩٩-١٩٦٥ : "L.Hjemslew" وجاكبسون ١٨٩٦ "R.Jakobson" وغيرهم لم يناقشوا موضوع الخطاب. وإنما كان أول من طرح مسألة الخطاب فى الدراسات الألسنية هو بيسنس "Buyssens" سنة ١٩٤٣ عندما دعى إلى ضرورة تأسيس السنية خطابية، والتى أصبحت اليوم فرعاً أساسيا فى التداولة "Pragmatique" إلا أن النقلة الألسنية الكبيرة لمسائل الخطاب تمت على يد بنسفت ١٩٠٢ - ١٩٧٦ "Benveniste" الذى تجاوز الإطار الشكلى للألسنية

(*) قسم الفلسفة ، جامعة منتورى ، قسنطينة.

البنيوية، وذلك عندما طرح مسائل الوظيفة ودور الفاعل المتكلم فى العملية المنطوقية. وهنالك توجه كامل فى فرنسا يسمى بتحليل الخطاب، يظهر فى أشكال مختلفة يمكن تصنيفها فى أربعة منظومات كبرى هى: المنظومة المنطوقية "Enonaeitif" المنظومة الحجاجية "Argumentatif" والمنظومة السردية"Narratif" والمنظومة الخطابية "Rhéthorique"[٢].

ولقد ارتبطت الأعمال الأولى للبنيويين الفرنسيين بهذه الأشكال المختلفة من تحليل الخطاب، سواء ما تعلق بأعمال كلود ليفى ستروس "C.Lévy - Strauss" (أو) رولان بارت ١٩١٥ - ١٩٨٠ "R.Barthes" (أو) جاك لكان ١٩٠١-١٩٨٠ "J.Lacan" (أو) ميشيل فوكو ١٩٢٦-١٩٨٤ "Michel Foucauht" فى أعماله الفلسفية والتاريخية، والتى سنحاول تحليلها فى هذه الدراسة، قصد الإجابة على تلك الأسئلة التى طرحناها فى المقدمة[٣].

أولاً: ميشيل فوكو وتحليل الخطاب:

من المعلوم أن الفيلسوف الفرنسى ميشيل فوكو قد قدم جملة من الأعمال التاريخية والفلسفية التى تنتمى إلى علم النفس والتحليل النفسى من خلال طرحه لمشكلة الجنون، وموضوعات تنتمى إلى الطب والطب التشريحى والعيادى من خلال تحليله لمشكلة المرض، ودراسات تنتمى إلى العلوم الإنسانية كالاقتصاد والبيولوچيا واللغة وذلك من خلال طرحه لمشكلة الإنسان، بتعبير آخر قدم جملة من الأعمال التى تنتمى إلى دائرة تاريخ العلوم بالمعنى الواسع للكلمة.

فلقد كتب فى "تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى Histoire de la Folie à l'age classique" والذى صدر سنة ١٩٦١ عن تجربة فريدة فى تاريخ الثقافة الغربية، هى تجربة الجنون من خلال مراحلها الكبرى المتمثلة فى عصر النهضة والعصر الكلاسيكى والعصر الحديث وناقش فيها مسائل الطب والطب النفسى والفلسفة والأدب والمؤسسات العلاجية كالمعزل والمستشفى وموقفها من الجنون، محاولا بذلك رسم لوحه عن العقل الغربى وسلطته وحدوده وكيفية تعامله مع الآخر من خلال الموقف من الجنون.

كما تحدث عن المرض والمريض فى مولد العيادة "Naissance de la Clinique" الصادر سنة ١٩٦٣ وعن المراحل المشكلة لها كمرحلة التصنيف والتشريح والتى كان عليها أن تؤسس خطاباً علمياً يمر حتماً بلحظة الموت كى يصبح علمياً، ذلك أن الإنسان الغربى فى نظر فوكو لم يصبح موضوع علم إلا بعد انفتاحه على واقعة فنائه الخاص، وهكذا نشأت عن تجربة الجنون مختلف النظريات السيكلوچية ، كما تولد عن تفسير الموت من خلال الطب التشريحى والطب الحديث مختلف النظريات الطبية حول الإنسان، وسيكون هذا بداية ومقدمة لدراسة الإنسان الغربى من خلال الاقتصاد والبيولوچيا واللسانيات، وهى المجالات التى سمحت بظهور العلوم الإنسانية الى درسها فى كتابه المشهـــور الــذى صدر سنة ١٩٦٦ بعنوان «الكلمات والأشياء : اركيولوچيا العلوم الإنسانيـة "Les Mots et les Choses , une archeologie des sciences des humaines".

وعلى أساس هذه الدراسات أو الممارسات الخطابية بلغة الفيلسوف ، حاول ميشيل فوكو أن ينظر لمسائل تحليل الخطاب من خلال مساءلة كبرى التيارات المشكلة لما نسميه اليوم بفلسفة اللغة وهى التحليل المنطقى والتحليل الألسنى والتأويل أو فلسفة التأويل "Hermineutique" ، وشكلت الدراسات التى نشرها بين سنوات ١٩٦٩-١٩٧٦ مثالاً للتنظير المنهجى للخطاب من حيث تماثلها مع أعمال فيدحنشتين ١٩٨٩ - ١٩٥١ "Wittgenstein" واستن ١٩١١ - ١٩٦٠ J.Austin وغدمار ١٩٠٠ "G. Gadamer" وبول ريكور ١٩١٣ "P.Ricoeur" وغيرها . . يدل على ذلك بوجه خاص الدراسات التالية أركيولوچية المعرفة ١٩٦٩ "L,Archeologie du Savoir" ونظام الخطاب ١٩٧١" "L'ordre du discanrs وإرادة المعرفة ١٩٦ Lavolonté du suroir والعديد من الدراسات والمقابلات التى خصها لهذا الموضوع، فما هى وجهة نظره فى الخطاب والتحليل الخطابى وما هو علاقته بكبرى الاتجاهات اللغوية والمنطقية والتأويلية؟ ثانياً : فى مفهوم الخطاب: يتكون الخطاب، فى نظر ميشيل فوكو، من مجموعة من المنطوقات أو الملفوظات "Enoncés" التى تكون بدورها مجموعة من التشكيلات الخطابية "Formations Discursives" . فماذا يقصد بالمنطوق وبالتشكيلة الخطابية؟

١ - **المنطوق** : المنطوق ذرة الخطاب ووحدته الأولى وعنصره الأخير. يتماثل مع الجملة والقضية والفعل اللسانى ويختلف عنهم فى نفس الوقت ، يقول ميشيل فوكو :«فقد استخدمت فى مناسبات عديدة لفظ منطوق ، أما لأشير إلى عدد من المنطوقات . . أو لأميزه عن تلك المجموعات التى اسميها الخطابات (مثل ما يتجزء الجزء عن الكل) ويبدو المنطوق أول وهلة كعنصر أخير، أو جزء لا يتجزأ، قابل لأن يستقل بذاته ويقيم علاقات مع عناصر أخرى مشابهة له. . المنطوق أبسط جزء فى الخطاب)[٤]. وعليه يختلف الخطاب عن اللغة والقضية، كما يختلف التحليل الخطابى عن التحليل الألسنى أو المنطقى، سواء من حيث المرجعية أو المنهج.

فمن حيث المرجعية، الخطاب لا يستند على الذات ولا على المؤسسة ولا على الصدق المنطقى أو البناء النحوى وإنما يستند على الممارسة الخطابية وغير الخطابية، وأما من حيث المنهج فإنه يعتمد على الوصف ، وصف المنطوق وصفاً قبلياً وتاريخياً وفى مختلف وظائفه التى يقوم بها فى حقبة تاريخية معينة وضمن التشكيلة الخطابية التى ينتمى إليها، لذا فإن كل وصف للخطاب يجب أن يتجسد فى عنصر مادى هو الأرشيف.

ويفترض هذا الوصف ضرورة الإلغاء المنهجى للوحدات الجاهزة التى ألف تاريخ الفكر البشرى استعمالها من مثل وحدة الكتاب أو العمل الأدبى أو الفرع العلمى والنظر إلى المنطوق باعتباره حدث منفصل ومتميز وقابل للتذكر والتكرار وخاضع لأشكال التدوين والممارسات الخطابية وغير الخطابية[٥]. ويتجسد فى وحدة جديدة سماها الفيلسوف بالتشكيلة الخطابية فماذا يقصد بها؟

٢ - **التشكيلة الخطابية** : يقول ميشيل فوكو :(التشكيلة الخطابية . . بالمعنى الدقيق، مجموعة من المنطوقات . . ترتبط فيما بينها على مستوى المنطوقات)[٦]. التشكيلة الخطابية تتماثل إذن مع الخطاب من حيث التكون، فكلاهما يتشكلان من منطوقات، مع فارق أساسى هو أن التشكيلات الخطابية لاتتكون من منطوقات فردية فقط، بل من مجموعة منطوقية، (فالتشكيلة الخطابية هى المنظومة المنطوقية

العامة التى تحكم مجموعة الإنجازات اللفظية)[٧]. كما أن استنباط أو تحليل التشكيلة الخطابية لا يكون من المنطوق وإنما من (ميدان المنطوق ومبدأ اجتماعه والوحدات التاريخية الكبرى التى تكوّن تلك المنطوقات والمناهج التى تسمح بانتظامها)[٨]. وهكذا نرى أن التشكيلة الخطابية تتماثل ومفهوم آخر هو ميدان الخطاب الذى يجمع منطوقات عديدة فى فترة تاريخية معينة يتم وصفهما وصفاً أركيولوچيا. وعليه نستطيع القول أن : الخطاب الذى يجمع منطوقات عديدة فى فترة تاريخية معينة يتم وصفهما وصفا اركيولوجيا وعليه نستطيع القول أن:

أ - المنطوق والتشكيلة الخطابية يخضعان لمنهج واحد فى التحليل هو المنهج الوصفى الأركيولوجى.

ب- مادام المنطوق ينتمى إلى التشكيلة الخطابية فان القواعد والقوانين الناظمة للتشكيلة الخطابية تنطبق كذلك على المنطوق.

جـ- الخطاب ليس أكثر من مجموعة من المنطوقات تنتمى إلى تشكيلة خطابية فهو، إذن ، عبارة عن :(عدد محصور من المنطوقات التى تستطيع تحديد شروط وجودها)[٩].

د - النتيجة الأساسية التى يصل إليها فوكو هى أن الخطاب محكوم بالممارسة الخطابية وغير الخطابية بتعبير آخر، أن المعيار الذى يستند إليه الخطاب فى التحليل هو الممارسة الخطابية وغير الخطابية.

٣ - مفهوم الممارسة الخطابية وغير الخطابية : تلعب الممارسة الخطابية وغير الخطابية دور المعيار بالنسبة للخطاب وتحليل الخطاب والمقصود بالممارسة الخطابية هى:(مجموعة من القواعد الموضوعية والتاريخية المعينة والمحددة دوماً فى الزمان والمكان، والتى حددت فى فترة زمنية بعينها وفى نطاق اجتماعى واقتصادى وجغرافى أو لسانى معطى، شروط ممارسة الوظيفة المنطوقية)[١٠].

يرى دومينيك لكور "D. Lecourt" أن مفهوم الممارسة من المفاهيم الأساسية فى تحليلات ميشيل فوكو ونقطة فاصلة فى علاقته بالبنيوية والتحليلات اللغوية،

وذلك لأن ما يعنيه فوكو بالممارسة ليس نشاط الذات بل الوجود الموضوعى والمادى لبعض القواعد التى تتحكم فى الذات عندما ترتبط بالخطاب . وتتحدد الممارسة الخطابية بثلاث صفات هى:

أ - لا تحيل الممارسة الخطابية إلى الذات ولا إلى العملية اللغوية أو التعبيرية ولا إلى المقدرة الشخصية.

ب- الممارسة الخطابية محكومة بقواعد موضوعية وتاريخية معينة ومحددة فى زمان ومكان معين.

جـ- هذه القواعد هى التى تحدد الوظيفة المنطوقية أو الخطابية، وعليه فإن الممارسة الخطابية تتعلق بالخطاب ووظيفته على عكس الممارسات غير الخطابية "Pratique Non - Discursive" والتى تتعلق بالمؤسسات والحياة الاجتماعية والاقتصادية أو كما يقول أن الممارسة الخطابية تعنى الخطاب ووظيفته أما الممارسات غير الخطابية فتعنى بعلاقات الخطاب بالنواحى المادية وهى:(حق مؤسساتى ومجموع أحداث وممارسات وقرارات سياسية وتسلسل سياقات اقتصادية)[١١].

وعلى هذا الأساس من التميز بين الممارسة الخطابية وغير الخطابية لايمكن تصنيف فوكو ضمن المنظور البنيوى للخطاب ما دام يفرق بين ممارسات خطابية تهتم بوظيفة الخطاب وممارسات غير خطابية تهتم بعلاقة الخطاب بالحياة المادية للمجتمع. وإذا كان ميشيل فوكو لا يقيم العلاقة بين الممارسات الخطابية وغير الخطابية على أساس السبب والنتيجة فإنه يرى فى الوقت ذاته أن المنهج الأركيولوجى يصف أشكال ظهور الخطاب وانبثاقه وكذلك مختلف علاقاته التى تتكون من علاقات أولية يمكن وصفها داخل المؤسسات والتقنيات والمؤسسات الاجتماعية وغيرها وعلاقات خطابية لا توجد داخل الخطاب بما أنها لا ترتبط بالألفاظ ولا بالجمل ولا بالقضايا كما أنها ليست خارج الخطاب بما أنه ينكر فكرة السببية والأسبقية، وإنما توجد :«إذا صح القول عند حدود الخطاب: فهى التى تمنحه الموضوعات التى يتحدث عنها.. فالعلاقات الخطابية لا تميز اللغة التى

يستخدمها الخطاب، ولا تميز الظروف التى ينتشر فيها كخطاب بل تميز الخطاب ذاته من حيث هو ممارسة)[١٢] من هنا نفهم نعت ووصف دريفوس "H. Dreyfus" ورابينوف "P.Rabinow" لمنهجية فوكو، فى كتابهما، ميشيل فوكو: مسيرة فلسفية «بأنها منهجية وصف مختلف الأشكال التاريخية للممارسة الخطابية ومن هنا نفهم أيضاً التسمية المقترحة من طرفهما وهى نظرية الممارسة الخطابية وليس نظرية الخطاب، ما دام فوكو يصف أشكالاً مختلفة من الممارسات الخطابية وغير الخطابية كالممارسات المعرفية والممارسات السلطوية ويدخل الخطاب فى علاقة مع الممارسات غير الخطابية ومختلف الاستراتيچية التى تربط الخطاب بالتشكيلة الخطابية.

يعرف فوكو الاستراتيچية بقوله :« يكون باستطاعتنا إظهار تشكيلة خطابية ما، فى فرديتها وخصوصيتها إذا تمكننا من تحديد منظومة تكون مختلف الاستراتيچيات الموجودة بها ، بعبارة أفضل ، إذا كان بمقدورنا إبراز استراتيچيات عن مجموعة ثابتة من العلاقات»[١٣] كما يحدد علاقة الخطاب بالاستراتيچية بقوله:«وتلزم الإشارة إلى أن الاستراتيچيات موصوفة على هذا النحو لا تجد موقعها الأصلى بعيداً عن الخطاب فى الغور الأبكم والصامت لاختيار أولى وأساسى فى نفس الوقت)[١٤]. ومن خلال النصين نتوقف عند دلالة الاستراتيچية وأهميتها فى تحليل الخطاب وارتباطه بما يسميه فوكو بالاختيارات النظرية وهى:(أساليب مسطرة . . للشروع فى توظيف إمكانيات الخطاب واستثمارها)[١٥] أن هذا التوظيف أو الاستثمار لا يكون خارج إرادة المعرفة والسلطة وهو ما يربط تحليل الخطاب بالممارسات غير الخطابية التى سيتوسع فى دراستها فى أعماله الخاصة بالسلطة والجنس وخاصة فى «المراقبة والمعاقبة» ١٩٧٥ "Surveiller et Punir" و«إرادة المعرفة» و«الاهتمام بالذات» ١٩٨٤ "Le Souci de Soi" و«استعمال الملذات» ١٩٨٤ "L'Usage des plaisires" وكذلك بعد إضافته للمنهج الجينيالوجى أو النسابى. ولتعيين وتوضيح المنهجين ، الأركيولوجى والجينيالوجى، يتطلب الأمر الوقوف عند بعض خصائصهما العامة.

ثالثاً : فى منهج تحليل الخطاب : صرح ميشيل فوكو لمجلة "Magazine Littéraire" فى العدد ٢٨ لشهرى افريل-مای ١٩٦٩ : (لقد استعملت هذا اللفظ - يقصد الأركيولوجية - للدلالة على وصف الوثيقة «الأرشيف» ولم أقصد به مطلقاً اكتشاف بداية أو الكشف عن عظام رميمة)[١٦]. ان هذا التصريح يتضمن عنصرين أساسيين هما: الوصف كطريقة والأرشيف كموضوع، وهذا ما نجده فى كتابه أركيولوچية المعرفة، مع تحديد لمضمون الطريقة والهدف والوصف، يقول: «بإمكاننا بالاستناد إلى قانون الألفاظ.. أن نطلق على تلك الأبحاث اسم «أركيولوچة» وهو لفظ لا يتضمن أى محاولة للجرى واللهث وراء البدايات، كما لا يقترن التحليل بأى تنقيب أو سبر جيولوچى بل يدل على الفكرة الأساسية والمحورية العامة لوصف هدفه استنطاق الماقبل فى مستوى وجوده وفى مستوى الوظيفة المنطوقية التى تمارس عليه والتشكيلة الخطابية التى ينتسب إليها.. فالأركيولوچية تصف الخطابات كممارسات محددة فى عنصر الأرشيف»[١٧].

يتضح من هذا التعريف أن موضوع المنهج الأركيولوجى ليس اللغة وإنما الأرشيف أو الوجود المتراكم للخطابات من حيث وظيفتها وشروط ظهورها وتشكلها وتحولها وانبثاقها أو تلاشيها وضياعها، يعنى هذا أن المجال الأساسى للتحليل الأركيولوجى هو التاريخ مع التأكيد على خصوصية التاريخ عند فوكو وهى خصوصية متصلة بالجينيالوجية التى سنبين بعض ملامحها لاحقا لأننا نريد الآن أن نبين بعض مبادئ الوصف الأركيولوجى والتى يمكن تلخيصها فى النقاط التالية:

١ - **اتخاذ بعض القرارات** "Décisions" : يتطلب الوصف أخذ بعض القرارات الحاسمة قصد التمييز والانتقاء وذلك من خلال تعيين حدود وأشكال التقرير والاحتفاظ وما لا يمكن الكلام فيه وما هى المنطوقات الموجهة نحو الاختفاء والتى يجب الاحتفاظ بها وتثبيتها فى ذاكرة الإنسان بواسطة مختلف الطرق البيداغوجية والتعليمية وما هى المنطوقات الممنوعة من التداول والتنشيط والتملك، فمن بين مختلف خطابات الحقب التاريخية والثقافات المغايرة أو الأجنبية نتساءل عن ماهى

الخطابات أو المنطوقات التى نحتفظ بها ونقيمها ونحاول إعادة تأسيسها وتكوينها وكيف نطورها ونحولها بالاعتماد على التعليق والتفسير والتحليل وما هو الدور الذى نمنحه لهذه المنطوقات كما يجب التساؤل عن الأفراد أو الجماعات أو الطبقات التى تنظم إلى خطاب ما؟ وكيف تتحدد الطبيعة القانونية بين الخطاب ومن يمتلكه؟ كيف تتحدد العلاقة بين الخطاب والمؤلف؟ وكيف تحدث الصراعات بين الطبقات والأمم والجماعات اللسانية والعرقية من أجل امتلاك الخطاب[١٨]. مع ضرورة الاعتماد على بعض المبادئ من مثل:

أ- **الندرة** "Rareté" : إذا كانت النصوص تدعى الوفرة والامتلاء ، بسبب وفرة وكثافة المدلول بالنسبة للدال، فإن تحليل الخطاب يسعى إلى سن قانون الندرة الذى يتخذ عدة أوجه، منها أن الكل لا يقال أبداً، ومنها أن العبارات تدرس فى الحد الذى يفصلها عما لم يقال:

ب- **التراكم** "Accumulation" : المقصود به رصد الأشكال النوعية للتراكم، باعتبار أن المنطوقات هى الأثر المستمر والذى يبقى ويتخلف بعد زوال باعثه وسببه. وبما أن التراكم يتضمن بوجه من الوجوه المحافظة فإن هذه المحافظة لا تعنى الذاكرة أو الذات بل قواعد مادية كالكتاب وبعض المؤسسات كالمكتبة وبعض الصيغ القانونية المنظمة لأرشيف.

جـ - **القبلى التاريخى** "A priori Historique": على عكس القبلى المتعالى الذى نجده عند كانط ، فإن ميشيل فوكو يرى أن القبلى التاريخى ليس شرطا لصحة الأحكام بل دليلاً على وجود المنطوقات، بقول: «فلا يعنينى فى شىء أن اكتشف ما يجعل من خطاب ما خطاباً صحيحاً أو ما يسمح بإمكانه، بقدر ما يعنينى إبراز شروط انبثاق المنطوقات وقانون تواجدها والشكل النوعى لنمط وجودها والمبادئ التى تستمر وفقهاً فى البقاء»[١٩].

إن القبلى التاريخى هو البحث فى الأسباب التاريخية لظهور المنطوقات والخطابات ولا علاقة له بالطرح المنطقى أو الألسنى، لذا فإن التحليل الخطابى وان

كان يستند على بعض المعطيات الألسنية والمنطقية إلا أنه يتميز عنهما من حيث أنه تحليل تاريخى بالدرجة الأولى، رغم الاعتراضات العديدة على مفهومه للتاريخ من طرف النقاد والمؤرخين والألسنيين وغيرهم، لأن مفهومه مرتبط كما قلنا سابقاً بالجينيالوچية، وهو ما يحتاج إلى توضيح وتحليل.

ادخل فوكو تعديلا منهجياً على أبحاثه فى مطلع السبعينيات وهذا راجع لعاملين أساسيين هما : عامل علمى يتعلق بجملة المشاكل العلمية التى لم تستطع الأركيولوچية حلها وخاصة مشكلة المعنى والدلالة، وعامل تاريخى يتعلق بأحداث ١٩٦٨ التى عرفتها فرنسا بشكل خاص وما حملته من قضايا ومسائل، وخاصة قضية السلطة بجميع أشكالها والتى عجزت الأركيولوچية على حلها وذلك بسبب انحصارها فى عملية الوصف المحض للخطابات كأحداث تاريخية، وهذا العجز أو القصور هو ما حاولت الجينيالوچية تجاوزه، وهو ما عبر عنه ميشيل فوكو فى درسه الافتتاحى بـ «الكوليج دى فرانس» "College de France" فى ٢ ديسمبر ١٩٧٠ قائلاً: «على هذ النحو يجب أن ينشأ بين الوصف النقدى والوصف الجينيالوجى نوع من التناوب والتآزر والتكامل. ان الجانب النقدى من التحليل يهتم بمنظومات تغليف الخطاب وتلفيفة، كما يحاول أن يضع يده على مبادئ الترتيب والتطفيف المتصلة به ولنقل من باب التلاعب بالكلام أنه يطبق وقاحة مطبقة فى حين أن الجانب الجينيالوجى من التحليل يهتم بسلاسل الصياغة الفعلية للخطاب : أنه يحاول وضع اليد على سلطة الإثبات وأنا لا أعنى بسلطة الإثبات تلك السلطة التى تتعارض مع سلطة الأفكار بل أقصد سلطة إنشاء ميادين من الموضوعات يمكن بصددها أن نثبت أو ننفى قضايا صادقة وأخرى كاذبة»[٢٠]. ان تحليل هذا التصريح يفترض العودة إلى نيتشه وعلاقة فوكو به، لكن هذه المسألة يصعب تحليلها بشكل كاف فى هذه الدراسة ولذلك نفضل القول بأن فوكو يحدد علاقته بنيتشه بقوله «إنى مجرد نيتشوى»[٢١] ولذا يرى استناداً إلى نيتشه أن الجينيالوجية تعلمنا الاستخفاف بالحفاوة التى يحظى بها الأصل، فالأصل الأسمى عبارة عن فائض ميتافيزيقى ، وبدلاً من البحث فى الأصل، تعمل الجينيالوچية على تعيين

البدايات: «لن تتأتى لنا إذن جينيالوچية القيم والأخلاق والزهد والمعرفة عن طريق البحث فى الأصل والإهمال لكل مراحل التاريخ بل من باب الوقوف الطويل والمتأنى عن البدايات، البدايات بكل تفاصيلها واتفاقتها والاهتمام الدقيق بقبحها وسخفها وانتظار بزوغ طلعتها من غير أقنعة وبوجه آخر»[٢٢].

البحث فى البدايات ، البدايات التى لا تدخل تحت الحصر هو البحث التاريخى المناهض لتاريخ المؤرخين والفلاسفة ولكل أشكال التاريخ الكلى، ويتميز هذا التاريخ الجينيالوجى بكونه لا يستند إلى أى ثابت من الثواب لذلك فهو يقحم الانفصال وينفى الاتصال، يفتت ويفكك الهوية. وفى نظر فوكو فان الباحث الجينيالوجى باحث مشخص وفاحص لمجالات ثلاثة هى المعرفة والسلطة والذات، هذا الفحص يقوم على مبادئ أساسية منها:

أ -تتنافى الجينيالوجية والطريقة التاريخية التقليدية.

ب- لا تبحث الجينيالوجية فى الجوهر الثابت ولا فى القوانين الأساسية ولا عن الغائيات الماورائية بل تبين الانقطاعات والفواصل.

جـ- لا تهتم بالتطور أو التقدم بل تبين التكرار كما لا تهتم بالعمق بل بالسطح بالتفاصيل الصغيرة بالانتقالات عديمة الشأن، فـ«إذا كان على المفسر أن يتجه بنفسه إلى العمق كالنقاب أو الحفار، فإن حركة التفسير الجينيالوجى هى بالعكس حرة، جزء ناتىء مرتفع أكثر أكثر، يجعل العمق ينتشر فوقه بوضوح متزايد»[٢٣] والفارق الأساسى بين تأويل فوكو ونيتشه يكمن فى أنه فى الوقت الذى يرجع فيه نيتشه التفسير إلى الإنسان وإلى الحوافز السيكولوچية فان فوكو يدمجه فى استراتيجيات المعرفة والسلطة ولا ينسبه إلى بطل معين ، يقول: «ان أحداً غير مسؤول عن انبثاق معين ، لا أحد يستطيع أن يفتخر به، وهو يحدث دوماً فى الفرجة»[٢٤]. بمعنى أن ميزان القوى هو الذى يفعل فعله داخل موقف تاريخى معين، لذا فإن من مهمات الجينيالوچية أن تبين أن الجسد غارق مباشرة فى الميدان السياسى، وان علاقات السلطة تخترقه وان المعرفة متورطة فى الصراع الدنىء لعلاقات الهيمنة، وهذه هى

الموضوعات المركزية التى سيقوم المنهج الأركيولوجى - الجينيالوجى للخطاب بتحليلها ودراستها، بطريقة تناوبية. وهذا ما عبر عنه دريفوس ورابينوف بالقول : (عندما نحلل قضايا معينة، فإننا سنركز على المركز الذى تحتله داخل الصيغة الخطابية، وهذه هى وظيفة الأركيولوچية. . وما أن ينجز عمل الأركيولوجى حتى يصير بوسع الباحث الجينيالوچى أن يتساءل عن ماهية الدور التاريخى والسياسى الذى تلعبه العلوم التى يدرسها»[٢٥] بمعنى أن الجينيالوجية أضافت مسائل سلطة الخطاب ومفهوم السلطة والمعرفة والسلطة وتأويلية الذات. وأن المنهجين معاً أقصد التحليل الأركيولوجى والتحليل الجينيالوجى هو ما أسميه بتحليل الخطاب، ولكن مادام هدفنا يقتصر فقط على دراسة العلاقة بين تحليل الخطاب والمقاربات الفلسفية اللغوية الأخرى قصد إظهار مكانة التحليل الخطابى فإننا نرجىء الحديث عن قضايا الخطاب والسلطة والمعرفة الذات إلى دراسات لاحقة.

رابعاً : فى علاقات الخطاب :

لايمكن إدراك المعنى الخاص للخطاب والمنطوق من دون إجراء مقارنات ، ولو مختصرة، مع مختلف الحدود أو المستويات التى يتقاطع معها التحليل الخطابى وخاصة ما يشكل حدود ما أسميناه بالاتجاهات الكبرى فى فلسفة اللغة وأعنى بذلك الألسنية والتحليل المنطقى والتأويل.

١ - **بين التحليل الخطابى والتحليل الألسنى** : يتعارض التحليل الخطابى مع التحليل الألسنى، وخاصة فى صورته البنيوية. يقول فوكو: (على خلاف ما يسمى التحليل البنيوى، فإنى لا أهتم بالإمكانيات الشكلية للأنساق، كاللغة ، ولكنى أهتم بوجود الخطابات كأحداث لها وظائف وعلاقات وآثار)[٢٦].

فالتحليل الخطابى ، إذن يتعارض وكل تحليل قاموسى أو دلالى، بنائى أو غير بنائى، للخطابات أو الجمل أو النصوص، أنه يهتم بالخطابات كممارسات لها قواعد ظهورها وانبثاقها، واختفائها واضمحلالها، ولكن هنالك تحليل السنى يتقارب والتحليل الخطابى، أنه التحليل الألسنى التوزيعى، كما جسدته أعمال

المدرسة التوزيعية الأمريكية، وخاصة أعمال «بلومفيلد» ١٨٨٧-١٩٤٩ "L.Bloomfield" و«هاريس» ١٩٠٩ "Z. Harris" التى ترفض التحليلات القائمة على العقلية والقصدية والتقليد والتأثير والتأثر، أى ترفض كل الأشكال التاريخية للوحدة والتواصل(٢٧).

على أن أصالة فوكو كما يقول «دلوز» ١٩٢٥ "J.Deleuze" واستناداً على «ايوالد» "Ewald" تكمن : «فى الكيفية التى حدد بها من جانبه المتون والمجاميع : إنه لا يحددها تبعاً لتواترات أو ثوابت لسانية، أو عن طريق الصفات الشخصية لأولئك الذين يتكلمون أو يكتبون [فهذه المجاميع والمتون] خطابات بلا مرجع، وأن الوثائقى غالباً ما يتحاشى الاستشهاد بالأسماء اللامعة»(٢٨).

إن تحليل الخطاب لا يختار الجمل أو القضايا أو المنطوقات بناء على بنيتها اللغوية، ولا على أساس الذات المؤلفة لها، بل على الوظيفة التى تضطلع بها، داخل مجموع ما: كنظام الحجر فى مستشفيات الأمراض العقلية أو فى السجون أو على كرسى الاعتراف، فهل يمكننا القول مع «محمد على الكردى» أن : «مفهوم الأركيولوچية كما بلوره ميشيل فوكو بصدد تحليله لضروب ومستويات محددة من الممارسات الخطابية، ما كان ليبرز إلى الوجود إلا من خلال المنهجية العامة للغة التى أسستها البنيوية؟»(٢٩).

لايمكننا إنكار الجوانب البنيوية فى منهجية فوكو الأركيولوجية وخاصة موقفه من الذات ومن التاريخ بمعناه الاتصالى، ولكن جديد فوكو يتمثل فى تفكيره مسائل اللغة والتاريخ، بصيغ الخطاب والممارسة الخطابية وأشكال ظهور الخطابات. . فالتحليل الخطابى بنظرنا محاولة لتأسيس خط ثالث فى التفكير الفلسفى، بين الخط الشكلى والخط التأويلى، ومحاولة لإقامة قواعد ومبادئ للتحليل، وتصور لموضوعات البحث ذات طبيعة تاريخية بالدرجة الأولى.

ان هذا الخط يلخصه النص التالى : «لاينبغى وصف مجموع المنطوقات، ككلية مغلقة ذات دلالات وافرة، بل كصورة تتخللها الفجوات ويطبعها التناثر،

ينبغى وصفه لا بإحالته إلى . . فكرة تجول بذهن إحدى الذوات، بل وصف تبعثره أو توزعه وانتشاره الخارجى . . من أجل اكتشاف أشكال التراكم النوعية . . ولا يعنى الخروج بتأويل . . بل إنشاء ما أدعوه وضعية "Positivité"[٣٠].

هذه الوضعية التى تعنى الوقوف الحرفى عند الخطابات ، أو الإنجازات اللفظية والنظر فى أشكال ظهورها وتحولها واختفائها، دون إرجاعها إلى ذات مؤسسة، أو معنى باطنى أو نسق منطقى أو بنية لغوية، بل تحليلها على مستوى وجودها، وفى إطار علاقتها بمختلف الممارسات الخطابية وغير الخطابية. إلا أن هنالك جوانب مشتركة بين اللغة والمنطوق تستلزم الواحد منهما الآخر، رغم أن العلاقة بينهما ليست متساوية لا من حيث الوضع ولا من حيث الوجود، فالمنطوق ليس شرطا لوجود اللغة ما دام يمكن استبداله بمنطوق آخر. واللغة تتكون من منظومة أو من نسق من المنطوقات الممكنة مثل ما يعرفها - دى سوسير- بوصفها نظام وأن منهجها وصفى محض[٣١].

ويكمن الفرق بين تصور ميشيل فوكو وتصور دى سوسير فى مفهوم النظام، فالأول يرى أن النظام المنطوقى مفتوح وحامل لإمكانية التجدد والتحول، أما الثانى فيرى أن النظام مغلق وأن المنهج يقتضى وصف اللغة كما هى. وان خاصية النظام المفتوح أو الحامل للإمكانية، يرجع أساساً إلى مفهوم اللغة ذاته عند فوكو، الذى يتميز بالاختراق والتجدد والتجاوز، فاللغة فى نظره: «يقطنها دوما آخر، خارج ونائى وبعيد، وفى جوفها يقبع الغياب»[٣٢]. وبناء عليه لا يمكن للغة إلا أن تكون نظاماً مفتوحاً ، أما المنطوق فهو الحدث التاريخى، أنه ذلك العنصر من اللغة الذى يتشكل فى صيغة وثيقة أو جملة أو قضية أو فعل لسانى، وان كان يتميز عنهما، كما سنبين لاحقاً.

إن المنطوق عنصر ضرورى لتكوين الجملة، ولكن لا يمكن تعريفه من خلال الخصائص النحوية للجملة، لأنه من الممكن أن نصادف منطوقات حيث يتعذر علينا العثور على جمل ، وحجة فوكو فى هذا هى الأحرف الهجائية أو الاسم أو

الفعل، فكل هذه المستويات تشكل منطوقات ولكنها لا تشكل جملاً فى حد ذاتها وإن كانت أساسية لتشكيل الجمل، وهذا يعنى أن المنطوق يمكن أن يكون أبسط من الجملة أو يعادلها أو يساويها.

٢ - بين التحليل الخطابى والتحليل المنطقى والفعل اللسانى : القضية وحدة منطقية، تتكون أساساً من صور وموضوع محمول ورابطة، وهى الموضوع المركزى للمنطق، ووحدته الأولى . تخضع إما للتحقيق أو للاستنباط . إلا أن :«المقاييس التى تسمح بتحديد قضية ما، وبتمييز عدد آخر من القضايا داخل وحدة صيغة ما، وإظهار استقلالها واكتمالها لا تصلح لوصف الوحدة المتميزة للمنطوق»[٣٣] والمثال الذى يسوقه فى هذا الشأن هو «لا واحد يعلم» و«حقيقة أنه لا واحد يعلم» من الناحية المنطقية يعتبر المثالين قضيتين غير مختلفتين ، أما من الناحية المنطوقية فيختلفان من حيث السياق . والقضية التالية:«جبل الذهب يوجد فى كاليفورنيا» قضية كاذبة منطقياً، لكنها صحيحة منطوقياً فى نظر فوكو، إذ يمكن أن تكون قضية واردة فى نص روائى، وتحمل دلالة أو إشارة، ضمن سياق النص الروائى.

وإذا كانت القضية تتصف بالتجريد، والجملة تفرض المعنى، فإن المنطوق يتصف بالندرة، وفوق كل هذا فهو:«شرط سابق للجمل والقضايا، وهذه الأخيرة تفترض ضمنياً وجودها باعتبارها هى التى تشكل الكلمات والموضوعات»[٣٤] . ولعل المثال النموذجى الذى يقدمه للتميز بين الجملة والقضية والمنطوق هو المثال التالى: «إن الأفكار الخضراء التى لا لون لها، تنام نوماً عميقا» إن هذا المثال يعتبر جملة لغوية، ولكنها جملة فاسدة المعنى، وقضية ولكنها متناقضة ولا تقبل التحقيق، إلا أنها منطوق، لماذا؟ لأنه فى نظر فوكو، رفض المثال على أساس أنه ليس جملة صحيحة أو ليس قضية صادقة، يستبعد جملة من الاحتمالات الممكنة، من مثل: أن المنطوق يعبر عن أضغاث أحلام أو مقطع من نص شعرى، أو هذيان ناتج عن مؤثر مثل التخدير، أو رسالة شفرية.

هذه الاحتمالات يتضمنها فعل المنطوق، ولكنها تتنافى ومفهوم الجملة والقضية، وهذا ما يجعل من فوكو يختلف عن الألسنيين والمناطقة، ويحاول أن

يؤسس توجهاً جديداً فى الدراسات اللغوية والفلسفية ، وهذا بالاعتماد على جهاز مفاهيمى خاص، لا يمكن فهمه دون مقارنته بمختلف التيارات الفلسفية والألسنية المعاصرة، وخاصة التيار الوضعى فى الفلسفة والمنطق، والتيار البنيوى فى الألسنية.

ولكن ورغم اختلافه مع هذين التيارين، إلا أنه يقترب من التيار التحليلى للغة، وخاصة تيار مدرسة «أكسفورد» التى تهتم باللغة العادية، خصوصاً أعمال «سورل» ١٩٣٢ "Searle" و«أوستين» والمتمحورة حول نظرية أفعال الكلام "Speech act" أو «نظرية أفعال اللسان».

لقد استعمل الفعل اللسانى، منذ العقد الثالث من القرن العشرين ، إلا أن معناه الفلسفى من إبداع «أوستين» بحيث «يعتبر فيلسوف أكسفورد جون أوستين المؤسس لهذه النظرية. انطلاقاً من الفكرة بأن الوحدة الصغرى للاتصال الإنسانى ليست الجملة، ولا أية عبارة أخرى، بل هى إنجاز بعض أنماط من الأفعال.. محاضرات أوستين التى جمعت تحت اسم، كيف تصنع الأشياء بالكلمات عام ١٩٦٢، حثت الفيلسوف الأمريكى سورل على تطوير هذه النظرية»[٣٥].

ومضمون هذه النظرية يقوم على دراسة الفعل التعبيرى والفعل الغرضى والفعل التأثيرى[٣٦]. حيث يكون الفعل التعبيرى هو جملة الأفعال الصوتية، والصرفية والتركيبية، والدلالية: «إننى أسمى فعل "قول شىء ما" بالمعنى العادى التام، أداء للفعل التعبيرى، واسمى دراسة المنطوقات حتى هذه النقطة، ومن هذه الجوانب باسم دراسة التعبيرات أو الوحدات التامة للكلام»[٣٧]. والفعل الغرضى هو الفعل الذى يحدد الطريقة التى نستعمل بها التعبير، من مثل هل نسأل أم نجيب على السؤال؟ هل نعلن عن رأى أم قصد؟ هل نضع تحديداً أم إتهاماً أم نقداً؟ . . . إلخ[٣٨]. وأخيراً الفعل التأثيرى وهو ما يحدثه المتكلم من تأثيرات معينة على مشاعر وأفكار المستمع كنتيجة لما يقول، وعلى سبيل المثال: « ربما يقنع شخصاً معيناً أن شيئاً ما حقيقة واقعة، أو يحث شخصاً معيناً لأداء شىء ما، وهكذا يفهم المرء شيئاً ما "عن طريق" القول»[٣٩]. إن مضمون هذه النظرية، يشبه مفهوم فوكو

للمنطوق، وخاصة فى وحدته الأساسية الخاصة بفعل اللسان أو الكلام، لذلك يرى فوكو أن المنطوق وفعل اللسان فعل واحد، مع فارق بسيط ، تبين فيما بعد عدم صوابيته، وهو أن مجموعة من الأفعال يمكن أن تشكل منطوقاً مركباً، وهو ما اعترض عليه «سيرل»(٤٠).

يبين فوكو وجه العلاقة بين المنطوق والفعل اللسانى، فى قوله: «يمكننا الافتراض أن تمييز المنطوقات يتبع ذات المقاييس فى رصد أفعال الكلام أو اللسان، فكل فعل يتحقق داخل منطوق، وكل منطوق يسكنه من الداخل فعل من تلك الأفعال، فكلاهما يوجد الآخر ويوجد به، والعكس بالعكس»(٤١). من خلال هذا النص، نلاحظ أن فوكو يساوى بين المنطوق وفعل الكلام، وأن الواحد منهما مشروط بالآخر. ولكنه يستدرك فيقول بأن «هذا النوع من الاقتران لا يثبت أمام النقد»لماذا؟ لأن ذلك يعود فى نظره - وكما قلنا- إلى إمكانية جمع الأفعال اللسانية، مثل: القسم، والعهد، والموعظة، والعقد. . . إلخ. فى منطوق مركب وهو ما اعترض عليه «سيرل» ولقد وافق فوكو على هذا الاعتراض وأجاب «سيرل» فى رسالة أوردها «دريفوس» فى كتابه «فوكو، مسيرة فلسفية» بقوله: «فيما يختص بتحليل الأفعال الخطابية، أوافق تماماً على ملاحظاتكم. فقد أخطأت فى القول أن الملفوظات (المنطوقات) ليست أفعالاً خطابية، لكننى أردت بقولى هذا أن أشدد على كونى أنظر إليها من زاوية مختلفة عن زاويتكم»(٤٢). إن هذه الزاوية التى يتحدث عنها، هى الزاوية الأركيولوچة - الجينيالوجية فى مقابل التحليل اللغوى الذى تقوم به «مدرسة أكسفورد» خاصة وأن للمنطوق فى نظر فوكو مهمات تاريخية ومعرفية وسياسية.

ولعل النقطة التى تستحق الإشارة هنا هى مرجعية المنطوق والتى ليست بالضرورة مرجعية القضية أو الجملة، فإذا كانت مرجعية القضية هى الصدق التجريبى أو النسقى، وإذا كان صدق الجملة فى دلالتها ونحوها، فإن المنطوق قد تكون له هذه المرجعيات وقد لا تكون، وهذا نظرا لكونه نسق أو مجال للإمكانات، وهو ما يتميز به المستوى المنطوقى لتشكيلة خطابية معينة فى مقابل

المستوى النحوى للجمل، أو المستوى المنطقى للقضايا، ووصف هذا المستوى المنطوقى لا يكون بالتحقيق، وإنما بتحليل العلاقات بين المنطوقات. وهذا يعنى أن علاقة القضية بالواقع أو بالنسق المنطقى ، وعلاقة الجملة بالمعنى أو بالقواعد المنطقية ، لا يمكن أن تكون نموذجاً لعلاقة المنطوق بما يعبر عنه. ذلك أن المنطوق يحلل فى إطار نسق المنطوقات، الذى تعبر عنه التشكيلة الخطابية والخاضع للممارسة الخطابية وغير الخطابية.

وهكذا، فسواء تعلق الأمر باللغة أو بالقضية فإن مفهوم فوكو للمنطوق مختلف، وإن كان ناتجاً عن هذه المناقشة ومتأثر إلى حد كبير بالإشكاليات التى تتحكم فى هذا الميدان الفلسفى، فهل منهج تحليل الخطاب يختلف أو يتفق وتحليل اللغة منطقياً؟ يقول فوكو: « إذا كان السؤال الذى يطرحه تحليل اللغة بصدد الحادثة الخطابية، يتعلق بالقواعد التى وفقها ينشأ هذا المنطوق المحدد. هذه القواعد قد تسمح بنشأة منطوقات أخرى مماثلة، فإن وصف أحداث الخطاب يطرح سؤالاً مغايراً ، يتخذ الصيغة التالية، ما الذى يجعل منطوقاً ما يظهر، دون أن يظهر منطوقاً آخر بدلاً عنه»(٤٣).

إن هذا يعنى إن الإشكالية التى يطرحها التحليل الخطابى تختلف عن إشكالية التحليل اللغوى، فالأولى إشكالية تاريخية واقعية، أما الثانية فإشكالية منطقية صورية. مرجعية الأولى تحددها الممارسة الخطابية وغير الخطابية ، أما الثانية فتقوم على التطابق مع الواقع أو التناسق المنطقى. وعلى الرغم من اعتماد فوكو على المنطوق كوحدة لتحليل الخطاب، وهو ما يتماثل فى خصائصه والفعل اللسانى أو الخطابى عند «أوستين» أو «سيرل»، إلا أن منهج تحليله لهذه الوحدة الأساسية ، يختلف كلية عن تحليل اللغة.

يقول فوكو: « إن تحليل المنطوقات لا يزعم أنه وصف شامل، جامع ومانع للغة أو لما قيل، بل يتخذ موقعه ومكانه داخل سمك وكثافة الإنجازات اللفظية. . فهو لا يسعى خاصة إلى أن يقوم مقام التحليل المنطقى للقضايا»(٤٤) فلا يهتم

التحليل الخطابى باللغة فى ذاتها، ولا بأشكال بنائها، ولا بمنطقها الداخلى، بل غايته وصف أحداث الخطاب فى ماديتها ووضعيتها والتساؤل عن شروطها التاريخية ووظائفها والاستراتيجيات التى تدخل فيها وعلاقتها بالأحداث الخطابية المماثلة لها أو المغايرة لها من الأحداث غير الخطابية. لذلك نقول أن التحليل الخطابى تحليل تاريخى بالدرجة الأولى على عكس التحليل اللغوى الذى هو تحليل منطقى أساساً.

وعليه، يتميز التحليل الخطابى عن التحليل اللغوى والمنطقى رغم اعتماده على وحدات لغوية كالمنطوق والخطاب، ورغم استناده على الإشكالية اللغوية التى تميز الفلسفة المعاصرة. وبهذا يعتبر التحليل الخطابى محاولة لتأسيس طريقة جديدة فى التعامل مع اللغة والخطاب، تعاملاً جديداً ومختلفاً عن التعامل المنطقى ، إلا أن هذا التحليل لا يتضح دون مناقشة علاقته بمناهج التأويل.

٣ - بين التحليل الخطابى والتأويل : تقوم لغة الثقافة الهندو-أوروبية، فى نظر ميشيل فوكو على فكرتين أساسيتين الأولى تتمثل فى الاعتقاد بأن اللغة لاتقول بالضبط ما تعنيه وأنها تتجاوز صورتها اللفظية الصرفة، والثانية تفيد أن هنالك أشياء أخرى فى العالم تتكلم دون أن تكون لها لغة. وهاتين الفكرتين مازالتا تمارس تأثيرهما على مختلف النظم التأويلية التى عرفها الفكر الغربى(٤٥). ولهذا الأثر نتيجتين أساسيتين، الأولى هى أنه لا وجود لعنصر أولى منه يبدأ التأويل لأن كل العناصر هى فى الحقيقة تأويل وكل علامة هى تأويل لعلامات أخرى، والثانية هى لا تناهى التأويل، من هنا يرى أن التأويل أسلوب من أساليب الكلام بمناسبة النقص ورغماً عنه، على عكس التحليل الخطابى الذى لا يبحث لا فى باطن الخطاب ولا خلف اللغة، وإنما يتوقف على حرفية النصوص لأنه يهدف إلى سن قانون ندرة المنطوقات وتراكمها وخارجيتها.

وإذا كان تأويل يجعل من الخطاب ثروة لا متناهية وكنزاً لا يفنى وفيضاً من المعانى والدلالات مع إحالة إلى ذات مؤسسة ومبدعة تحاول الكشف عن أسرار الخطاب وإظهار ما هو خفى وما وراء الألفاظ ، فإن التحليل الخطابى يصف

الأشياء التى قيلت ويحاول الكشف عن كيفية ظهورها أو تجليها وهذا يعنى أنه تحليل تاريخى، بالرغم من أن ميشيل فوكو سيعدل بعض الشىء من هذه الفكرة وذلك تحت تأثير «نيتشه» ومختلف المشاكل المعرفية التى طرحها تحليل الخطاب خاصة مسألة المعنى والسلطة والتى عجز التحليل الخطابى فى شكله الوصفى عن الإجابة عليها كما بينا ذلك سابقاً[٤٦].

يقول ميشيل فوكو: «إن التأويل أسلوب من أساليب الكلام بمناسبة النقص ورغما عنه . أما تحليل التشكيلات الخطابية فيعنى البحث عن قانون ذلك النقص. قياس وتحديد صورته النوعية»[٤٧]. لا يهتم إذن التحليل الخطابى بالمعنى ولا يبحث فى باطن الخطاب ولا خلف اللغة، إنه يتوقف عند حرفية الخطاب، عكس التأويل الذى يبحث فى باطن الخطاب، مسائلا المعنى والمضمون، والفكرة المستترة وراء اللفظ.

لأن التحليل الخطابى يسعى إلى سن قانون ندرة المنطوقات وتراكمها وخارجيتها، أما التأويل فيجعل من الخطاب ثروة لا متناهية وكنزاً لا يفنى فيضاً من المعانى والدلالات وإحالة إلى ذات مؤسسة ومبدعة تحاول الكشف عن أسرار الخطاب، وإظهار ما هو خفى، وما وراء الألفاظ، فى حين أن التحليل الخطابى يصف الأشياء التى قيلت من حيث هى كذلك وكيفية ظهورها أو تجليها، وهذا يعنى أنه تحليل تاريخى، يهتم باللغة الفعلية الجلية والواضحة للعيان.

ولعل «جيل دولوز» قد توقف عند خصوصية التحليل الخطابى مقارنة بالتحليل المنطقى والتأويلى، عندما قال: « تتعارض الأركيولوچية وتقنيتين أساسيتين، تستخدمان حتى الآن من طرف «الوثائقيين» : التشكيل والتأويل، وغالباً ما ينتقل الوثائقيون من هذه التقنية إلى تلك أو العكس، أو يعتمدونهما معاً فى ذات الوقت. . أما فوكو فيحمل لواء مشروع مخالف أتم الاختلاف: الاكتفاء بمجرد كتابة ما قيل، والوقوف عندها كوضعية للقول أو للمنطوق»[٤٨].

وعلى هذا الأساس نستطيع القول أن فوكو مع أركيولوچيا المعرفة يقطع مع منهج التحليل المنطقى ومنهج التأويل، رغم محاولته تفكير التأويل بشكل مغاير،

هذا التفكير الذى سيتأكد بما يسمى بـ«فشل الأركيولوچيا المنهجى» كما يقول «دريفوس» والذى فرض على فوكو العودة من جديد إلى «نيتشه» "Neitzsche" وإلى «فرويد» "Freud" و «ماركس» "Marx" .

لقد كان السؤال المركزى ، الذى انطلق منه «نيتشه» هو : تحت أية ظروف أو شروط يخلق الإنسان أحكامه القيمية المتعلقة بالخير والشر، وما هى قيمة هذه الأحكام؟ أو كما يقول:«فى أية شروط عمد الإنسان إلى اختراع مقياسى الخير والشر هذين بغية استعمالهما فى حياته. وما هى قيمة هذين المقياسين بحد ذاتهما؟ هل أديا حتى الآن إلى عرقلة تطور البشرية أم إلى تعزيز هذا التطور؟ هل هما عارض من عوارض البؤس والفقر الروحى والانحطاط؟ أم أنهما ينمان، بالعكس، عن الغبطة والقوة والعزم على العيش والشجاعة والثقة بالمستقبل وبالحياة؟»(٤٩).

إن الإجابة على هذه الإشكالية، كانت تتطلب - فى نظر نيتشه - البحث التاريخى بالمعنى الجينالوجى، أى تفكيك ما كان يسميه بالنص الهيروغليفى، هذا التحليل التاريخى، الذى كان موضوع مناقشة فوكو، فى ثلاثة مناسبات أساسية، كتب لها نصوصا أساسية وهى: **نيتشه، فرويد، ماركس** الذى صدر سنة ١٩٦٧، والخاص بالتأويل، والنص الثانى نشره سنة ١٩٧١ ، بعنوان : نيتشه، الجينالوچيا والتاريخ، وفى نفس السنة، وبمناسبة اعتلائه كرسى «الأنساق الفكرية» بـ«الكوليج دى فرانس»، ناقش نصوص «نيتشه» ، واقتراح التكامل بين الجنيالوجيا والأركيولوچيا.

لسنا فى حاجة إلى تأكيد وتوضيح علاقة فوكو بـ «نيتشه» ، مادام لا يخفى ولا ينكر هذه العلاقة، بل يصرح بأن علاقته بـ«نيتشه» تعود إلى سنة ١٩٥٣ ، وأنه مجرد «نيتشوى» ، كما أن العديد من الباحثين قد توقفوا عند هذه العلاقة، وخاصة «رونو وفرى» "Renaut - Ferry" فى كتابهما : «فكر ٦٨»(٥٠). وبالاستناد إلى ما قلناه سابقاً فى الملامح الخاصة بالمنهجية الأركيولوچية والجينيالوجية، فإننا نستطيع القول فيما يتعلق بالتأويل أن دور الجينيالوجية يكمن فيما تضيفه من مسائل

المعنى بالاستناد إلى مفهوم القوة، فلقد : «كانت الجينيالوجية النيتشوية إعادة بحث عما يشكل المعنى ويبنى القيمة فى كل شىء وكل علاقة . فكشف القوة باعتبارها هى الحامل الحقيقى للمعنى»(٥١).

وكان مفهوم فوكو للسلطة يعكس هذا المعنى، إذ هى مجموع علاقات قوة فى وضع استراتيچى معين. كما أضافت الجنيالوجيا للأركيولوجيا مفهوماً للتاريخ لا يقوم على الوصف المحض للخطابات، ولكن على إدراك وظائفها وأهدافها ومعانيها، فالجينيالوجيا لا : «تريد القبض على الأفكار مجسدة، بل تريد رسم ---➤ تصوير الأفكار وهى تشتغل، وشغلها المتواضع ليس هو ترميز ما يخفى وراءها، أو يعلو فوقها ، ولكنه هو ---➤ **حيزها بالذات**»(٥٢).

وعليه فإن علاقة الأركيولوچيا بالجينالوجيا، وإن بدت تكاملية، فإن الجينيالوجيا ما فتئت تبتعد عن الأركيولوجيا، وتناقش موضوعات السلطة والذات فى المجتمع الحديث ، وتقيم ما يسميه فوكو لاحقا بتاريخ الحاضر. ورغم أن فوكو يعلن أن مشاريعه المستقبلية ستتقاسمها المنهجية الأركيولوچية والجنيالوجية ، إلا أن المتفحص، يستنتج أن الأركيولوجيا تنتمى أكثر إلى مرحلة الممارسات الخطابية، مرحلة الجنون والعقل والطب واللغة، أكثر من انتمائها إلى مرحلة الممارسات غير الخطابية الخاصة بالسلطة والجسد، والتى ستعالجها الجينيالوجيا.

وفى هذا السياق، **فإن نظام الخطاب**، يشكل نقطة تحول كبير فى فلسفة فوكو، سواء من حيث المنهج، أو من حيث الموضوعات، أو من حيث تصور الخطاب ذاته، وأن التوقف عند هذا التحول يتطلب دراسة مستقلة حول علاقات الخطاب بالسلطة والمعرفة والذات.

وعليه يمكننا القول ، كخلاصة عامة لموقف فوكو من التحليل الخطابى ومنزلته فى فلسفة اللغة، أنه إذا كنا لا نذكر الجوانب الالسنية فى مفهوم الخطاب عند فوكو، وخاصة الالسنية البنيوية وموقفها من الذات والتاريخ فى شكله الاتصالى، وإذا كنا لا ننكر أهمية اللغة والتحليل اللغوى فى المدرسة الأنجلوسكسونية وخاصة

على مستوى الإشكاليات وأثر ذلك على مفهوم الخطاب ووحدته الأساسية، وإذا كنا لا ننكر أهمية التأويل ودوره فى تعديل كثير من مسائل تحليل الخطاب، إلا أننا نعتقد، أن محاولة ميشيل فوكو كانت تحاور كبرى التيارات اللغوية والفلسفية الغربية، من خلال قضاياها وإشكالياتها بهدف تأسيس طريقة جديدة لتفكير مسائل اللغة والخطاب والتاريخ، هذه الطريقة التى يمكن تلخيصها فى النظر إلى الخطاب على أساس المنطوقات التى يتكون منها والموزعة على مختلف التشكيلات الخطابية فى حقبة تاريخية معينة ومساءلة أشكال ظهورها وتحولها ووظائفها واستراتيچيتها وتحولها أو اختفائها دونما إرجاعها إلى ذات مؤسسة أو إلى معنى باطنى أو نسق منطقى أو بنية لغوية بل الاقتصار على وصفها وكيفية ظهورها فى التاريخ.

obeikandl.com

هوامش البحث

١ - من الصعب تحديد مجال وموضوع ومنهج فلسفة اللغة، إلا أنه يمكن القول أن هنالك رأى يعتقد أن فلسفة اللغة هى مختلف الآراء الفلسفية التى قيلت حول طبيعة اللغة وعلاقتها بالفكر والواقع والتى نقرؤها فى نصوص أفلاطون وأرسطو والفارابى وديكارت ولوك ونيتشه وفيدجنشتين وغدمار ودريدا وفوكو وأوستين وكواين.. إلخ أو بتعبير آخر مختلف آراء الفلاسفة فى اللغة.. وواضح أن هذا الرأى يجعل من فلسفة اللغة جزء من الفلسفة العامة للفيلسوف ولا يعطيها المكانة الخاصة التى أصبحت تتمتع بها فى الدراسات الفلسفية المعاصرة، وهنالك من يقصرها على التيار التحليلى ابتداء من جورج مور وراسل وخاصة فيدختشتين ثم التيار الوضعى المنطقى كما هو الحال عند كارناب أوتيار مدرسة أكسفورد كما هى الحال عند أوستن وسيرل، وهنالك من يحددها فى التيار التأويلى ابتداء من مؤسس الظواهرية هوسرل مرورا بهيدجر وميرلوبنتى وجدامر وبول ريكور وخلفيته التاريخية عند شلايرماخر وفقهاء اللغة. وهنالك رأى رابع يختصر فلسفة اللغة فى أعمال الألسنين ابتداء من دى سوسير وانتهاء بشومسكى مروراً بنفينست والمدرسة التوزيعية الأمريكية مع التركيز على مناهج ومفاهيم الألسنية. إلا أننا نعتقد أن الموضوعية تفرض علينا النظر إلى فلسفة اللغة انطلاقاً من النقلة النوعية التى عرفتها مسائل اللغة نتيجة للتطورات الحاصلة فى ميدان المنطق الرياضى والألسنية والتأويل أو فلسفة التأويل، وهو الذى أدى إلى بروز راى يدافع عن فكرة أن فلسفة اللغة فرع فلسفى مثله مثل بقية الفروع الفلسفية الأخرى كفلسفة التاريخ وفلسفة العلوم وغيرهما.. أى أن فلسفة اللغة مبحث مستقل له موضوع خاص به هو اللغة منظوراً إليها من الزاوية الفلسفية وله مناهج قائمة بذاتها وتاريخ خاص ونظريات أساسية، مثل النظريات المنطقية والألسنية

والتأويلية، مع ضرورة الإشارة إلى المكانة الخاصة للتأويل والتحفظات القائمة بينه وبين التحليل المنطقى الذى يدافع عن خصوصية العلاقة بين المنطق واللغة. وللمزيد من المعلومات حول هذه المسائل يمكن الاطلاع على الكتب التالية:

- Enic Grillo : La philosophie du language, Ed. Seuil , 1997.
- Diago Marconi : La philosophie du language au 20e Siécle . 1997 .
- Sylvain Auroux : La philosophie du language , Ed , P.U.G , 1996.

يمكن الإشارة أيضاً إلى بعض العلوم اللسانية كعلم العلامة وعلم الدلالة والعلوم الإنسانية التى تهتم باللغة منها علم النفس اللغوى وعلم الاجتماع اللغوى والأنثربولوجية اللغوية تساهم فى بلورة مقاربات جديدة للغة.

2 - Jean Dubois et les autres : Dictionnaire de linguistiques , Ed, Larousse .

٣ - هنالك دراسات كثيرة حول علاقة البنيويين بالدراسات الألسنية ولعل أفضل وسيلة لمعرفة هذه العلاقة الاطلاع مباشرة على أعمال كلود ليفى ستروس وخاصة «البنى الأساسية للقرابة» و «الأنثربولوچية البنيوية» وأعمال رولان بارت خاصة «درجة الصفر فى الكتابة» و «النقد والحقيقة» وكذلك أعمال جاك لكان وخاصة «كتابات».

4 - Michel Foucault : L'archéologie du Savoir, Ed, Gallimard , 1969. P41.

ترجم هذا الكتاب إلى العربية من طرف سالم يفوت بعنوان : حفريات المعرفة، وصدر عن المركز الثقافى العربى، سنة ١٩٨٦ .

٥ - للاطلاع أكثر على رأى الفيلسوف حول علاقة الخطاب بالتاريخ يمكن العودة بشكل خاص إلى بحثه المنشور فى مجلة «Esprit» العدد ٣٧١ سنة ١٩٦٨ بعنوان Réponse à une question وخاصة الصفحات ٨٦٠ - ٨٦٢.

6 - Michel Foucalt : L'archéologie du Savoir , op-cit, P.167 - 168.

٧ - فرديناند دى سوسير : دروس فى الألسنية العامة، ترجمة محمد القرمادى وآخرون ، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٢ ، ص ٤٣ .

8 - Michel Foucault : Ibid , P.146.

9 - Rymond Bellourd : Le livre des autres , Ed. 10-18, P.117.

10- Michel Foucault : Op-cit , P110.

١١- ذكر هذا الحوار «دريفوس» و «رابينوف» فى كتابهما : ميشيل فوكو مسيرة فلسفية، ترجمة جورج أبى صالح، مركز الإنماء القومى ١٩٩٠، ص ٤٥ .

12- Michel Foucault : Op- cit , P.140.

13- Michel Fou cault : L'Archeologie du Savoir , op - Cit , P.103.

14- Ibid , P.67.

15- Ibid, P.89.

16- Michel Foult : Magazine Littéraire , Avril - Mai , 1969 , No28 , in, Dits et écrits 1954 - 1988, Tome 10ed, Gallimard , 1994, P.71.

17- Michel Foucault : L'Archeologie du Savoir , op-cit, P.13.

18- Michel Foucault : Réponse Au cercle d 'Epistémologie, in, Esprit, No 371, mai 1968, P.P. 819-859-860.

19- Michel Foucault : L'Archeologie du Savoir , op-cit, P.173.

20 - Michel Foucault : L'Ordre du Discours , ed, Gllimard, 1971 , P.71.

21 - Michel Foucault: Michel Foucault , (1926 - 1984) , ed, Flamarion, 1991, P.72.

22 - Michel Foucault, Niètzsche, la Généalogie, L'Histoire, in, Dits et ecrits , tome2, ed, Gallimard, 1994, P.138.

23- Michel Foucault: Nietzche, Freud , Marx, in, Dits et ecrits, tomel, ed, Gallimard, 1994, P.565.

24- Ibid, P.566.

٢٥- دريفوس ورابينوف، ميشال فوكو : مسيرة فلسفية، مرجع سبق ذكره، ص١٠٨ .

26- Rymond Bellourd, Le Livre des Autres , op. Cit., P . 117.

27- Francois dosse, Histoire du Structuralisme, ed, La découverte, tomel, 1991, P.304.

٢٩- محمد على الكردى: نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو، دار المعرفة الجامعية، (ب-ت) ص١٤٧ .

30- Michel Doucault : L'Archeologie du Savoir , op-cit, P.119.

٣١- فرديناند دى سوسير: دروس فى الألسنية العامة، مرجع سبق ذكره، ص٤٣ .

32- Michel Foucault , L'Archologie du Savoir, op-cit, P.146.

33- Ibid, P.79.

34- Gille Deleuze , OP-Cit, P.22.

٣٥- عادل فاخورى، نظرية الأفعال الكلامية فى الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء القومى، ط١، ١٩٨٦، ص١٣٣٠ .

٣٦- صلاح إسماعيل عبدالحق، التحليل اللغوى عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٣، ص١٨٤ .

٣٧- صلاح إسماعيل عبدالحق، نفس المرجع، ص١٨٣ .

٣٨- نفس المرجع ، ص١٨٥ .

٣٩- نفس المرجع ، ص١٩٤ .

٤٠- نفس المرجع، ص ٢٠٣ .

٤١- دريفوس ورابينوف، ميشال فوكو: مسيرة فلسفية، مرجع سبق ذكره، ص٤٥ .

42- Michel Foucaut , L'Archeologie du Savoir , Op- cit , P.81.

٤٣- دريفوس ورابينوف، ميشال فوكو: مسيرة فلسفية، مرجع سبق ذكره، أنظر هامش، ص ٤٥، تاريخ الرسالة هو ١٥ أيار/ مای ١٩٧٩ .

٤٤- نفس المصدر، ص ٢٧ .

٤٥- حول علاقة ميشيل فوكو بالتأويل، يمكن العودة إلى كتابه «الكلمات والأشياء» القسم الثانی وخاصة ما تعلق بوضعية اللغة فی العصر الحديث، وكذلك محاضرته التی ألقاها سنة ١٩٦٧ فی الجمعية الفلسفية الفرنسية حول: «نيتشه وفرويد وماركس»، وكذلك بحثه «نيتشه الجينيالوجيا والتاريخ» .

٤٦- تعد كتبه التی نشرها فی السبعينات دليلاً علی التحول الذی طرأ علی منهج تحليله للخطاب وخاصة من حيث علاقة الخطاب بالسلطة والذات، ونظراً لحجم المسائل المطروحة وطبيعتها المعقدة، آثرنا عدم مناقشتها فی هذه الدراسة التی خصصناها لمنزلة الخطاب فی فلسفة اللغة بشكل عام، وعلی القارئ الذی يريد الإطلاع علی آراء الفيلسوف حول تلك المسائل أن يعود إلى كتبه وخاصة «نظام الخطاب» و«إرادة المعرفة» و«الاهتمام بالذات» انظر كتابنا: مفهوم الخطاب فی فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلی للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠ .

47- Michel Foucault, L'Archeologie du Savoir, Op - Cit , P.15.

28- Gille Deleuze , Op-cit, P.P. 12-22.

٤٩- فردريك نيتشه، أصل الأخلاق وفصلها، تعريب، حسن قبيسی ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨١، ص١١ .

50- Didier Eribon , Michel Foucault , (1926-1984) , ed. Flamarion , 1991, P.72.

وكذلك :

- Luc Ferry - Alain Renaut, La Pensée 68, Essal sur l'Anti - Hummanisme Contemporain, ed . Gallimard, 1985. P.105.

٥١- مطاع صفدى ، نقد العقل الغربى، الحداثة ما بعد الحداثة، مركز الإنماء القومى، ص١٤٢ .

٥٢- نفس المرجع، ص ١٤٢ .

obeikandl.com